

التراث العربي الإسلامي، قراءات ومستقبل محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن أنموذجان

رؤوف مخلوفي

طالب دكتوراه، فلسفة عربية إسلامية، جامعة 8 ماي 1945، قالمة
raoufmakhloufi19@gmail.com

مقدمة

مع يقظة العقل العربي الإسلامي، وبالخصوص مع النصف الثاني من القرن 19م، بعد كبوة طويلة وصدمة من طرف العقل الغربي الحدائي، ظهرت مشاريع نهضوية حاولت أن تنفض الغبار عن جزئية مهمة تسمى التراث، وهو يمثل في الحقيقة الكل في أي انطلاقة حضارية. ومعلوم أن النهضة الغربية على سبيل المثال لا الحصر، لم يتأتى لها النجاح إلا بعد قراءتها ودراستها لتراثها وتراث غيرها، وكذلك هو الشأن بالنسبة لمختلف الأمم والحضارات. تُعدُّ قراءة ودراسة التراث العربي الإسلامي من اللبنة والأسس القوية والسليمة لأي انطلاقة حضارية عربية إسلامية مُتجددة بأفكار حكمائها وأعلامها ومفكرها. ويعود اختيارنا على وجه الخصوص لمحمد عابد الجابري (1935-2010) وطه عبد الرحمن (1944-.) كأنموذجين؛ لملامتهما لممكن ما يمكن أن نسلم به بداية على أنه تأزماً في تناول التراث العربي الإسلامي، بالقراءة والدراسة والتحليل؛ أي بمعنى احتواء رؤيتي المفكرين على أغلب التساؤلات التي قدمت حول قراءة ودراسة التراث العربي الإسلامي.

ونهدف من خلال هذا المقال إلى لوصول إلى قراءة جامعة للتراث؛ بعيدة عن أسربعض المرجعيات الاختزالية والضيقة الطرح والأفاق، والقاصرة عن تصور رؤيوية فاعلة وناجحة للنهوض بالحضارة العربية الإسلامية من جديد. كما نهدف إلى تبقي الأفكار المُنجزة حول التراث، والتي بإمكانها النهوض بالواقع العربي الإسلامي، في أبراج وعليةا التنظيرات الفكرية، وإنما تنزل لواقع التطبيق العملي. وقبل ذلك لابد من مرورها على محكّ الورشات والمخابر العلمية المُستشرفة للمستقبل.

يدعوننا ذلك إلى طرح الإشكالية الآتية: إلى أي مدى يمكننا الوصول إلى قراءة فاعلة لتراثنا العربي الإسلامي؟ وتتجزأ هذه الإشكالية الرئيسية لتساؤلات فرعية وهي:

- ما الذي يمثله التراث بالنسبة للعقل العربي المسلم؟
 - ما هي أبرز القراءات والدراسات التي قُدمت حول التراث؟
 - كيف نثمنها ونتمثلها وننزل بها من مستوى التنظير إلى مستوى العمل الورشاتي والمخبري؟
- نحاول في هذا المقام مقارنة هذه الإشكالية مستعينين بآليات المنهج التحليلي وكذا المنهج المقارن أحياناً الذي يظهر للقارئ من خلال مقارنتنا بين آراء بعض المفكرين. وهذه القراءة تتقوم بنصوص المفكرين المذكورين أعلاه، فاعتمدنا على أهم مؤلف للمفكر محمد عابد الجابري حول التراث، وهو "التراث والحداثة"، وبعض مؤلفات المفكر طه عبد الرحمن، ونذكر منها "تجديد المنهج في تقويم التراث".

1. مفهوم التراث

أ. لغة

كلمة تراث في اللغة العربية مشتقة من الجذر (و-ر-ث). والتُّراثُ أصلُ التاء فيه واو. أما الوَرثُ والإِثْرُ والتُّراثُ والميراثُ فهما ما وُرثَ. وقيل الوَرثُ والميراثُ في المال، والإِثْرُ في الحَسَب... فالتُّراثُ ما يخلفه الرجل لورثته [2]. أما في اللغة الإنجليزية فكلمة "Heritage" [9] معناها لا يكاد يختلف كثيراً عن المعنى العربي. وقد استعملت كلمة Héritage بالفرنسية في معنى مجازي للدلالة على المعتقدات والعادات الخاصة بحضارة ما، وبكيفية عامة "التراث الروحي" [3].

ب. اصطلاحاً

من الصعوبة الوصول إلى ضبط دقيق للتراث نتيجة للحمولة المعرفية التي تضمنها وبالخصوص في العصور المتأخرة، وبصفة أخص في الفكر العربي الإسلامي. ومع ذلك سنحاول مع المفكر محمد عابد الجابري، تقديم تعريف اصطلاحى للتراث.

يعتقد الجابري أن التراث "أصبح يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب، أي إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم لتجعل منهم جميعاً خلقاً لسلف... ذلك هو المضمون، الحي في النفوس، الحاضر في الوعي، الذي يعطي للثقافة العربية الإسلامية عندما يُنظر إليها بوصفها مقوِّماً من مقومات الذات العربية وعنصرها أساسياً ورئيسياً من عناصر وحدتها" [3]. ويضيف: "ومن هنا يُنظر إلى 'التراث' لا على أنه بقايا ثقافة الماضي، بل على أنه 'تَمَامٌ' هذه الثقافة وكيبتها: إنه العقيدة والشريعة، واللغة والأدب، والعقل والذهنية، والحنين والتطلعات" [3]. فهذا المفهوم قدم لنا الملامح والسمات التي يحملها التراث في الفكر العربي الإسلامي المعاصر. فهو يشير إلى أنه تركة فكرية وروحية يحملها الخلف من السلف. وبالتالي فهو حاضر في النفوس والوعي، وهو ما يجعل الثقافة العربية الإسلامية حاضرة ومتميزة ومُبدعة، وهو دليل على وحدتها، ومنه فهو يمثل كل ما أنتجه العرب المسلمون ويتطلعون إليه.

2. أهمية التراث العربي الإسلامي

مثل التراث ركيزة أساسية عند مختلف الأمم والحضارات، باعتباره حصناً ودافعاً نحو التقدم للمستقبل، بعد قراءته ودراسته وتنقيحه طبعاً. والتراث العربي الإسلامي يحمل من القيم ما يجعله يقدم للمجال التداولي العربي الإسلامي، حلولا لمشكلات تبدو عصية على الحل عند البعض، حيث يقول ابن خلدون (توفي 808هـ-1406م) واصفاً عصره "وكأنما نادى لسان الكون بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة" [1]. فليَمَ لا تكون لنا إجاباتنا العربية الإسلامية عن مستجدات عصرنا نحن اليوم؟ ومن ثم نتخلص من عصور التراجع والانحطاط وما أعقبها، لتحقيق الاستئناف الحضاري وتقديم حلول للحضارة الإنسانية.

وفي هذا الصدد نستأنس بقول طه عبد الرحمن حيث يقول: "إن الإقلاع عن مسلك التلمذة لا يكون إلا بتحصيل القدرة على عرض ما ليس عند الغير" [4]. والذي نستشفه من هذا القول عمومًا هو أن نعمل على تحصيل القدرة الإبداعية للتخلص من هيمنة التلمذة والتلقي من الغرب الأوروبي في مختلف الميادين الحياتية.

3. محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن كقارئين ودارسين للتراث

بعيداً عن أسروصرع بعض المرجعيات الشمولية والتوظيف الأيديولوجي السليبي للتراث، سنحاول تقديم رؤى لبعض المفكرين العرب المسلمين المعاصرين، وكيف قاموا بمعالجة التراث العربي الإسلامي من زاوية نظر جامعة، واخترنا محمد عابد الجابري، وطه عبد الرحمن.

اقترح محمد عابد الجابري قراءة عصرية للتراث وحاول تطبيقها، تجعل المقروء معاصرًا على صعيد الإشكالية النظرية والمحتوى المعرفي حيث يقول الجابري: "أي قراءته في محيطه الاجتماعي التاريخي من جهة، وفي ذات الوقت جعله معاصرًا لنا، من جهة أخرى، على صعيد الفهم والمعقولية" [3]. ويعتقد الجابري أن هذا هو المعنى العميق للاجتهاد كما مارسه كبار علماء الأمة؛ ومنه ينهنا الجابري إلى الاجتهاد، ونحن أحوج ما نكون اليوم للاجتهاد لتقديم حلول لمشكلاتنا الجديدة.

وينتقد الجابري القراءات المباشرة والسطحية المختلفة للتراث العربي الإسلامي حين يصرح: "أما القوالب الجاهزة الجامدة، سواء أكانت قديمة أو حديثة، فهي لا تمتلك أن تقدم غير شيء واحد هو القراءة التراثية للتراث التي تجر حتمًا إلى القراءة التراثية للعصر: قراءة عصرنا بنفس تراثنا أو بتراث آخر وثقافة أخرى" [3]. وهذا يحيلنا إلى المنهج الذي اعتمده الجابري في قراءة تراثنا العربي الإسلامي، وهو بالمناسبة لا ينكر دور المستشرقين الذين قاموا بنشر وتحقيق عدد لا بأس به من أمهات كتب التراث العربي الإسلامي، وسلطوا كثيرًا من الأضواء على جوانبه بالدراسة والتحليل. لكنه يرى بأنه لا بد ألا نساق معهم؛ باعتبار أنهم ينضون تحت لواء حضارة غالبية، فلا بد من تحليل فكرهم والكشف عن أهدافه ومرامييه. يقول الجابري: "يجب أن نكون واعين في ذات الوقت بأن اهتمامهم بهذا التراث... لم يكن في أي حال من الأحوال، ولا في وقت من الأوقات، من أجلنا نحن العرب والمسلمين، بل كان دومًا من أجلهم هم" [3].

وهو ما يتضح لنا أكثر مع المستشرق الألماني تجيتسي جاكوبس دي بور Tjitze Jacobs de Boer، والذي يُعتبر من الأوائل الذين أزخوا للفلسفة الإسلامية ككل، وذلك في كتابه "تاريخ الفلسفة في الإسلام". فالعنوان يوحي لنا بإنصافه لهذه الحضارة، لكن المتأمل في هذا القول من متنه، ومرامييه سيجد عكس ذلك حيث يقول دي بور: "وظلت الفلسفة الإسلامية على الدوام فلسفة انتخابية عمادها الاقتباس مما ترجم من كتب الإغريق... فلا نجد لها في عالم الفكر خطوات جديدة تستحق أن نسجلها لها" [3]. فهذا القول في الحقيقة ينم عن ذهنية مُتمركزة حول الحضارة الغربية وتاريخها، ومبعدة ومُسفة لجهود الحضارة العربية الإسلامية في هذا المضمار.

يرى الجابري أن التراث العربي الإسلامي تراث يمتاز بطابعه العالمي والشمولي: فهو عالمي باعتبار أنه تراث حضارة عالمية، في فترة من فترات تاريخها المُشرق؛ وهو شمولي لكونه يمسّ جميع مناحي الحياة الفردية والجماعية حيث يقول: "إن الفصل بين هذا الجانب وذاك في تراثنا العربي الإسلامي لشيء صعب حقًا" [3]، أي أنه من الصعب الفصل فيه بين المعارف والعلوم المكونة له.

يقترح علينا الجابري منهجًا تحليليًا يصلح للتعامل مع تراثنا العربي الإسلامي ومع التراث الإنساني بصفة عامة، ويتقوم هذا المنهج بالموضوعية والمعقولية إذ يقول: "والتراث كما قلنا هو شيء ينتهي إلى الماضي، القريب أو البعيد. ولذلك كان لا بد للتعامل معه تعاملًا علميًا، من التزام أكبر قدر من الموضوعية وأكبر قدر من المعقولية. وإذا كان هذان الشرطان مطلوبين في كل عمل علمي فهما مطلوبان هنا أكثر، ولذلك لا بد من الإلحاح عليهما. ذلك لأن التراث بما أنه شيء 'حاضر فينا ومعنا' فهو أقرب إلى أن يكون ذاتًا منه إلى أن يكون موضوعًا، وبالتالي فنحن معرّضون إلى أن يحتوينا بدل أن نحويه" [3]. نستشف من هذا القول أن الجابري يركز على مفهومي الموضوعية والمعقولية كشرطين أساسيين في قراءة ودراسة التراث، وذلك بهدف الوصول إلى قراءة جديّة للتراث العربي الإسلامي، وينسحب هذا المعنى على كل تراث إنساني.

يسلمنا هذا الطرح للتراث إلى قراءة ودراسة مغايرة للتراث العربي الإسلامي، تحاول إعادة إحياء الإبداع والألق الفكري والاجتهاد في الفكر العربي الإسلامي، وإعادة الاعتبار لما تم تخييسه. يرى طه عبد الرحمن أن الفكر العربي الإسلامي المعاصر اتجه إلى تقويم التراث بزعتين: "النزعة الأولى مضمونية تقوم على أن حصيلة التراث مردها إلى المحتويات بحسب الحاجة والاستعمال والهدف، أما النزعة الثانية فهي تجزيئية تقوم على تقسيم المحتويات والمضامين

وتصنيفها إلى مجالات وقطاعات متميزة فيما بينها، مع مبدأ المفاضلة بينها على أساس من الانتقاء، والنتيجة المنطقية التي يتوصل إليها هي العلاقة الضرورية بين النزعة المضمونية كمقدمة، والنزعة التجزيئية كنتيجة" [8].

من هذا المنطلق يوجه طه عبد الرحمن سهام النقد إلى الأنموذج الفكري للجابري على أساس أنه متناقض في قراءته ودراسته للتراث العربي الإسلامي حيث يرى بأن نموذج الجابري في تقويم التراث قد وقع في تعارض فادح، وهو القول بالنظرة الشمولية، والعمل وفقاً للنظرة التجزيئية [6]. ومعنى ذلك أن عقلانية الجابري متناقضة، وذلك للانفصال بين النظرية والتطبيق في أنموذجه.

فالجابري ينطلق من نقده لمسلك المستشرقين، ويدعو إلى النظر إلى العلوم العربية الإسلامية ككل وأصل واحد، لكننا عندما نلج باب التطبيق ونتطلع إلى النتائج نصطدم بمنظومة الجابري في تقسيمه للتراث إلى أجزاء مختلفة، ومفاضلة بينها بأسلوب انتقائي غير مبرر. يشرح ذلك طه عبد الرحمن بقوله: "قسم التراث إلى دوائر ثلاث سماها بالأنظمة المعرفية، وهي: 'البرهان' و'البيان' و'العرفان'. وهذه عنده دوائر متباينة في آلياتها، لا رابط بينها إلا المصارعة أو المصالحة، ومتفاضلة في نتائجها، لا يرقى فيها العرفان إلى مستوى البيان، ولا يسمو فيها البيان إلى مقام البرهان، ولا ينزل الرتبة العليا في هذا المقام إلا الفكر الرشدي" [6]. لهذا فإن طه عبد الرحمن في تفكيره مع الجابري وضده في أن واحد ينتهي إلى نتيجة مفادها أن ثمة تناقضا بين النظرية والتطبيق في منظومته الفكرية. يرى طه عبد الرحمن بأن هذه النظرة التجزيئية المتفاضلة لم تستطع النهوض بواقع الأمة العربية الإسلامية.

بهذا المدخل يرى طه عبد الرحمن أنه يجوز أن نحمل التراث على معنيين اثنين: "أحدهما، المعنى الموسع للتراث، وهو أن التراث يشمل النصوص الدينية المؤسسة (القرآن الكريم والسنة الشريفة) واجتهادات المسلمين جميعاً... إذ يقول [الله] عز وجل: ﴿أَوْزُنْنَا الْكِتَابَ الَّذِي نَصُفَّقِينَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]. فالقرآن والسنة هما إرث للمؤمنين، أي يندرجان في تراث المسلمين، والثاني المعنى المضيّق للتراث، وهو قصر دلالة التراث على اجتهادات المسلمين" [5]. ومنه يرى طه عبد الرحمن أن الذي يريد أن يقرأ ويدرس التراث، فإما أنه يرجع إلى التراث بالمعنى الموسع أو يرجع إليه بالمعنى المضيّق. وبالنسبة للذي يرجع إليه بمعناه الموسع، فإنه سيعود إلى النص القرآني والسنة لكي يستمد منهما القوة والمدد لاجتهاداته.

ويبين لنا طه عبد الرحمن أن القراءات النقدية للتراث، والتي حصلت في السياق الفكري الغربي لم تكن بتلك الحدة التي نجدها عند بعض مفكرينا الذين انتهوا إلى نتيجة وهي، إما إلغاؤه كلية بحجة الدخول في عصر الحداثة، وإما انتقاء أجزاء منه يعتبرها البعض بأنها ستمكثهم من التقدم. يقول طه عبد الرحمن: "فالاشتغال الغربي بالتراث كان تأبيدا لمقوماته وإحياء لقيمه" [5]. فهذه القراءات للتراث تنتهي حسب طه عبد الرحمن إلى ترك أغلب التراث، أو الانقطاع عنه كلياً. فالبحث عن مفاهيم موجودة عند الغرب وفي ثقافته وتسلطها على التراث العربي الإسلامي، دون نقدها وتمحيصها ومن غير تمكن من آلياتها، يتعارض مع البحث العلمي الهادف إذ يقول طه عبد الرحمن: "في حين أن من أراد نقد التراث، فيتعين عليه أن يطلب وسائل تناسب هذا التراث" [5]. ومن جهة أخرى، ويرى طه عبد الرحمن أنه يتوجب علينا إيجاد منهجية تناسب خصوصية تراثنا، ولا تكون واردة من خارج تراثنا العربي الإسلامي.

ولم يبغض طه عبد الرحمن بعض الاجتهادات في قراءة ودراسة التراث العربي الإسلامي، مثل دعاة الربط بين التراث والمعاصرة، ولا ينكر بأن هناك نتائج إيجابية توصلوا إليها، ولكنه ينهنا إلى نقطة مهمة حيث يقول: "بيد أنه يبقى أن نفرّق بين أمرين: بين الروح والمقاصد التي تتحكم في هذا التراث من جهة، وبين تجليات هذه الروح وتحقيقات هذه المقاصد من جهة ثانية؛ والذي نحتاج إليه لاستئناف العطاء هو أن نتبين هذه الروح بوصفها جملة من المقاصد والقيم والمبادئ التي انبنى عليها التراث وتحكمت في عملية توليده وتطويره" [5].

ولعل أهم خصيصة ومبدأ توصل إليه طه عبد الرحمن في قراءته ودراسته للتراث هو ما يسميه "مبدأ التداول"، والمقصود به: "أن التراث الإسلامي أو الحضارة الإسلامية دائماً تستوعب الوافد عليها أو المنقول إليها استيعاباً يُخضعه للقيم المعرفية والقيم اللغوية والقيم العقديّة الخاصة بها" [5]. فمتى تلقينا مضموناً أو مفهومًا من مجال غير مجالنا التداولي، وجب أن نخضعه لمقتضيات التداول العربي الإسلامي. وفي وقوفه عند الآليات التي أنتجت المضامين العربية الإسلامية التي هي، إما استدلالية أو لغوية، تبين له أن التراث العربي الإسلامي مُشبع إلى درجة كبيرة بالآلة المنطقية، وهذا ما يعضده قوله: "لقد كان للآلة المنطقية دور كبير في إنتاج المعرفة الإسلامية، لذلك كان استخدامي لها في الكشف عن المبادئ أو الروح التي يتحدد بها تراثنا" [5]. يدل ذلك دلالة كافية على عدم تقليد طه عبد الرحمن للغرب الأوروبي، بل جاء بنقده المنطقي للتراث والذي يختلف عن النقد والمعالجة التاريخية الغربية لتراثها.

4. من التنظير إلى الواقع الفعلي

تأسيساً على ما سبق ذكره وما نود تبينه في هذا العنصر، هو أننا حاولنا إبراز بعض النقاط المشتركة بين الرؤيتين؛ والتي نعتقد بأنها المؤسسة لقراءة ودراسة فاعلة للتراث العربي الإسلامي، بعيداً عن الطرح المبدد لجهودهما بالتنافر والحديّة، للمضي بها لتنتج على الواقع العربي الإسلامي الفعلي الفاقد لحقيقة وبوصلة إدراك الاستئناف الحضاري العربي الإسلامي من جديد، والواقع الحضاري الإنساني المأزوم. وتبقى محاولات المفكرين العرب المسلمين سواء في قراءة ودراسة إشكالية التراث، أو في غيرها من الإشكاليات المطروحة، في السياق العربي الإسلامي في مستوى التنظير. وذلك لأن الورشات والمخابر لم تُفتح بعد من قبل الباحثين والدارسين لتحقيق تلك الآمال على مستوى الواقع الفعلي. إننا نلاحظ أن "الكثير من هؤلاء المفكرين فارق الحياة دون أن نرى لشعاراتهم تحققاً ولا لمشاريعهم تجسداً في أرض الواقع، وما زلنا نطمح في النهوض" [7]. فالعمل والاشتغال الجدي على التراث يعطي لجهود مفكرينا قيمتها ومعناها الحقيقي، شريطة انبثاقها من سياقنا وواقعنا ومتطلباته وأماله.

المراجع

- [1] ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، 2007.
- [2] ابن منظور: لسان العرب، مج 2، دار صادر، بيروت.
- [3] الجابري، محمد عابد: التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991.
- [4] طه، عبد الرحمن: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006.
- [5] طه، عبد الرحمن: الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للنشر والأبحاث، بيروت، 2013.
- [6] طه، عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- [7] مسرحي، فراح: المهام الجديدة للمثقف في السياقات العربية الإسلامية، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2018.
- [8] مقورة، جلول: فلسفة التواصل في الفكر العربي المعاصر: طه عبد الرحمن وناصر بين القومية والكونية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2015.
- [9] Bull, Victoria : Oxford Learner's Pocket Dictionary, Oxford University Press, 2008.